من جذور التّطوّر الدّلالي ومظاهره لدى اللّغويين القدامى

د/رويسات محمّد جامعة د/ مولاي الطّاهر سعيدة

تمهيد (ملخّص):

يتناول هذا النّص الإرهاصات الأولى لتطور ألفاظ اللغة العربية لالياً ،وأنماط البحث الأساسية الّتي جنح إليها علماء العربية لتطوير العلاقات الدلالية في دراساتهم اللّغوية، محافظة على الذّكر الحكيم وصيانة للغتهم الشريفة.وعلى رأس هذه المباحث الّتي مثّلت اللّبنات الأولى لظاهرة التّطوّر الدّلالي لألفاظ العربيّة : البذور الأولى لحركة المعاجم بمختلف أنواعها ،وتوجّهات مشارب أصحابها ،وكذا خاصية الاشتقاق وإمكانيات التّطوّر الدّلالي التّاريخي في اللّغة العربيّة ، وذلك في ضوء السّياقات المختلفة.هذا وتبقى ظواهر دلاليّة أخرى –إذا سنحت الظّروف يوماً – سنخوض في تفسيرها وتأصيلها .

إنّ الدّافع الأساسي الّذي أدّى بالعلماء القدامى إلى الاهتمام بالدّراسات اللّغويّة هو محافظتهم على القرآن الكريم، والحديث النّبوي الشّريف، والمحافظة على النّطق السّليم للألفاظ العربيّة وصحّة التّعبير بها، والقدرة على وضع الأسماء والمصطلحات للمعاني والأفكار المستحدثة، واستيعاب المفاهيم الجديدة، وذلك بعد أن توسّعت الفتوحات الإسلاميّة، واعتنقت الإسلام أمم غير عربيّة، وكان عليها أن تعرف شعائر الدّين باللّغة العربيّة.

واللّغة العربيّة ما كانت تطمح في أن يتعدّى سلطانها وزنها، فتضرب الذّلة على لغات نمت في أحضان الحضارة، وتستأثر دونها بالمكان الأسمى، في ممالك ما كان العربي يحلم أن يحياها، فضلاً عن أن يكون السّيد المتصرّف فيها، ولكن القرآن الكريم انتزعها من أحضان الصّحراء وأتاح لها ملكاً فسيح الأرجاء، تأخذ منه لألفاظها ومعانيها وإعرابها وأسلوبها ما لحياتها البدويّة، فبعد أن كانت ثروتها في حدود بيئتها، أصبحت غنيّة في كل فنون الحياة، فأقبل النّاس عليها ،وانصرفوا إليها مدفوعين بالحاجة إلى التّفاهم مع أوليائهم

العرب، وإلى معرفة أحكام الدّين، وأداء واجبات الإسلام، ولذلك فشت في المجتمع العربي الإسلامي ألفاظ إسلاميّة، وأخرى اصطلاحيّة؛ ممّا أدّى بالأولى من الألفاظ إلى توسّع في دلالتها لتتّسع لمعان أخرى حدثت عن القرآن والحديث النّبوي، حيث جاء الإسلام بعبادات ومبادئ وتعاليم لم تكن في جملتها معروفة للعرب؛ لذا أخذت تلك المعاني الّتي استحدثت أسماء كانت لمسمّيات بينها وبين هذه صلة من الصّلات، مثل: لفظ المؤمن: كان يعرف من الإيمان ويعني التّصديق.

الكافر: من الكفر بمعنى السّتر، والصّلاة: بمعنى الدّعاء، والحجّ: وأصله القصد، والفاسق: لم يكن يعرف إلاّ من الفسق، بمعنى خروج الرّطبة من سترها، والصّوم: أصله الإمساك مطلقاً. أمّا الألفاظ الاصطلاحيّة الّتي أصبحت تدلّ على معان استلزمتها الحياة، فحرّفت دلالتها الأولى إلى الدّلالة على معان علميّة اصطلاحيّة لم تكن بالضّرورة عند العرب. يقول الدّكتور أحمد محمّد قدّور :" ومع أنّ اللّغويين القدامى وقفواْ من تغيّر الدّلالة ذلك الموقف المتشدّد، فإنّ الدّارس يجد شواهد كثيرة على تغيّر الدّلالة من عصر إلى عصر آخر، منها ما ورد في بحوثهم المعجميّة والأدبيّة، ومنها ما اتّخذ شكلاً قريبا من البحوث المنظّمة والواضحة المقاصد، ولاسيّما في المصطلح والألفاظ الإسلاميّة ...[1]

ولقد نظر اللّغويون إلى الألفاظ من زوايا متعدّدة، فاتّسع نطاق الدّراسات اللّغويّة ليشمل قضايا عدّة، فكانت العلاقات الدّلاليّة محور دراساتهم اللّغويّة، حتّى تؤدّي اللّغة ما وقع على عاتقها من غايات نبيلة، وأهداف سامّية باعتبارها لغة القرآن ودستور المسلمين. والبحث في دلالة الألفاظ القرآنيّة أهمّ وأخطر، لما يتوقّف على تحديد تلك الألفاظ من أحكام شرعيّة وقانونيّة تميّز وتفرُق بين الحلال والحرام، والواجب والمندوب، والمستحبّ والمكروه . ...الخ. ومن مظاهر التّطور الدّلالي وجذوره عند اللّغويين القدماء:

1 ــ **حركة المعاجم** : لاشكّ أنّه بسبب القرآن الكريم ظهرت علوم ودراسات قرآنيّة

[1] – الدّكتور أحمد محمّد قدّور، اللّسانيات وآفاق الدّرس اللّغوي، دار الفكر المعاصر، بيروت،لبنان، ص 203 .

شتّى سبقت صناعة المعاجم في الإسلام، منها : علم الغريب، علم التّفسير، علم النّحو،علم الصّرف، الأشباه والنّظائر ...الخ.

جاء في كتاب علم الدّلالة للدّكتور أحمد مختار عمر: "كان البحث في دلالة الكلمات من أهمّ ما لفت نظر اللّغويّين العرب وأثار اهتمامهم، وتعدّ الأعمال المبكّرة عند العرب من مباحث علم الدّلالة مثل تسجيل معاني الغريب في القرآن الكريم، ومثل الحديث عن مجاز القرآن، ومثل التّأليف في (الوجوه والنّظائر) في القرآن، ومثل إنتاج المعاجم الموضوعيّة ومعاجم الألفاظ، وحتّى ضبط المصحف بالشّكل يعدّ في حقيقته عملاً دلاليّاَ؛ لأنّ تغيير الضّبط يؤدّي إلى تغيير وظيفة الكلمة، وبالتّالي إلى تغيير المعنى. ولعلّنا في هذا المقال يكفينا التّمثيل بسبب وضع النّحو حين لحن قارئ في آية قرآنيّة، وقـــــرأ : ﴿ **أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** ﴾– بجرّ رسول– بدلاً من ضمّها، ممّا أدّى إلى أن يبرأ اللّه من رسوله بدلاً من أن يكون الرّسول هو البريء من المشركين. " [2]

لـــذا ارتأيت أن أشير إلى بعض هذه الدّراسات الّتي مهّدت للدّراسات المعجميّة العربيّة وكانت لها صلة بالتّطوّر الدّلالي:

1– 1 ــ غريب القرآن :

ذكر صاحب كتاب (مفتاح السّعادة) أنّ من أشهر التّابعين في مجال دراسة غريب القرآن في مكّة مجاهد، سعيد بن جبير، وعكرمة، وطاوس، وعطاء بن أبي رباح. وعميدهم ابن عبّاس، فمعظم روايات هؤلاء تسند إلى ابن عبّاس.

ومن أشهر رجالات تفسير غريب القرآن بالمدينة: زيد بن أسلم، وأبو العليّة، ومحمّد بن كعب القرظي، وعميدهم أبيّ بن كعب". [3]

---

[2] ــ د/ أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، ط5: 1998، ص 20 .

[3] ــ ينظر أحمد بن مصطفى الشّهير بطّاش كبرى زادة (تحقيق كامل بكري وآخرون)، مفتاح السّعادة، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة،ج 2 ، ص92.

وإنّ أوّل ما ظهر في غريب القرآن هو الكتاب المنسوب إلى ابن عبّاس (ت68هـ)، الّذي عرف عنه أنّه كان يسأل عن معاني مفردات القرآن، ويفسّرها تفسيراً لغويّاً، مستشهداً في شروحه تلك بأدلّة من الشّعر العربيّ القديم.

وجاء في الإتقان عن التّصنيف في غريب القرآن : " أفرده بالتّصنيف خلائق لا يحصـــون منهم: أبو عبيدة، وأبو عمر الزّاهد، وابن دريد، ومن أشهر هذه التّصنيفات :كتاب العزيزي، ومن أحسنها المفردات للرّاغب، ولأبي حيّان في ذلك تأليف مختصر."[4]

1- 2 ـ غريب ألفاظ الحديث :

لقد أوتي الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم جوامع الكلم، وهو عليم بلغات العرب، يتكلّم مع كلّ قوم بلغتهم، لذا كثر الغريب في حديثه.

ومن الكتب الّتي وضعها العلماء حول غريب الحديث (كتاب الغريبين) للهروي، قال ابن الأثير: " ورتّبه مقفّى على حروف المعجم، فاستخرج الكلمات اللّغويّة الغريبة من أماكنها، وأثبتها في حروفها، وذكر معانيها، وإذا كان الغرض والمقصد من هذا التّصنيف معرفة الكلمة الغريبة لغةً وإعراباً ومعنى، لا معرفة متون الأحاديث والآثار، وطرق أسانيدها، وأسماء رواتها، فإنّ ذلك علم مستقلّ بنفسه مشهور بين أهله، فجاء كتابه جامعاً في الحسن بين الإحاطة والوضع، فإذا أراد الإنسان كلمة غريبة وجدها في حرفها بغير تعب، إلاّ أنّه جاء الحديث مفرّقاً في حروف كلماته حيث كان هو المقصود والغرض، فانتشر كتابه بهذا التّسهيل والتّيسير في البلاد والأمصار، وصار هو العمدة في غريب الأحاديث والآثار ".[5]

وبمثل هذا انطلقت الإرهاصات الأولى للدّراسات المعجميّة في اللّغة العربيّة. ومن

---

[4] ـ السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار نهر النّيل،ج1، ص113.

[5] ـ ابن الأثير، مقدّمة النّهاية:1/8-9، نقلاً عن الدّكتور عبد العال سالم مكرم،اللّغة العربيّة في رحاب القرآن الكريم، عالم الكتب، ص67.

أوائل الّذين تناولواْ غريب الحديث في مؤلّفاتهم على صغر حجمها، أبو عبيدة معمّربن المثنّى(ت 210 هـــ) وأبو عمرو الشّيباني (ت 206 هـــ)، والفرّاء (ت 207 هـــ)، والأصمعي (ت 213 هـــ)، وأبو زيد الأنصاري (ت 215 هـــ)، كما ألّف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـــ) كتاباً في الموضوع يحتوي على أربعة أجزاء، وكذلك ابن قتيبة (ت 276 هـــ)، وغيرهم...[6]

1- 3 ــ غريب اللّغة :

تعدّت"مؤلّفات العلماء في الغريب حدود القرآن والحديث إلى اللّغة، شعراً ومثلاً، وكلاماً فوضـــع نفر من اللّغويّين كتبهم لتفسير مفرداتها العربيّة، والحقيـــقة أنّ اهتمامهم بغريب اللّغة رافق درسهم لغريب القرآن وغريب الحديث ....ومن المؤلّفات في غريب اللّغة،كتاب (تفسير الغريب) لبرزج ابن محمّد العروضي، كتاب (غريب الحديث والكلام الوحشي) للأصمعي (ت 213)،كتاب (غريب الأسماء) لأبي زيد....كتاب تفسير الأمثال لابن العربي(ت 235)". وغيرهم ..[7]

1- 4 ــ كتب الأشباه والنّظائر:

تعدّ كتب الأشباه والنّظائر في الدّراسات القرآنية من أهمّ عوامل تطوّر اللّغة العربيّة في مجال الدّلالة. ويراد بالوجوه: اللّفظ المشترك الّذي يستعمل في عدّة معان، والنّظائر: جمع نظير أو نظيرة، ونظير الشّيء مثله...

وجاء في(البرهان) للزّركشي: " أنّ بعضهم جعل الوجوه والنّظائر من أنواع معجزات القرآن الكريم، حيث كانت الكلمة الواحدة تصرف إلى عشرين وجهاَ أو أكثر أو أقلّ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر، ويذكر مثالاً لهذه الوجوه المتعدّدة لكلمة (الهدى) الّتي تمثّلت دلالتها في سبعة عشر معنى، منها :

---

[6] ــ محمّد حسين آل ياسين، الدّراسات اللّغويّة عند العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، ص 158.

[7] ــ نفسه، ص: 158.

ـــ .بمعنى البيان لقوله تعالى ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾.[8]

ـــ .بمعنى الدّين، في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ** ﴾.[9]

ـــ .بمعنى الإيمان، في قوله:﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾.[10]

ـــ .بمعنى رسل أو كتب﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى** ﴾.[11]

ـــ .بمعنى المعرفة ﴿ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾. [12]

ـــ .بمعنى الرّشاد،﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ** ﴾.[13]

ـــ .بمعنى القرآن ﴿**وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾.[14]

ـــ .بمعنى التّوحيد﴿**إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ** ﴾. [15]

ـــ وبمعنى التّوجّه ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** ﴾.[16] ،[17]

1 - 5 - الدّراسات المعجميّة اللّغوية :

المعجم مصطلح استحدث في الإسلام بمعنى إزالة غموض الكلمة بشرحها وبيانها، وقد ذكر أنّ المصحف إلى جانب تنقيطه تنقيط إعراب تمّ تنقيطه تنقيط إعجام، والإعجام هو تميّز الحروف المتشابهة بوضع نقاط لأمن اللّبس.

---

[8] - سورة البقرة، الآية 5 .

[9] - سورة آل عمران،الآية 73.

[10] -- سورة مريم،الآية76.

[11] - سورة البقرة،الآية 38.

[12] - سورة النّحل،الآية16.

[13] - سورة الفاتحة،الآية 6.

[14] - سورة النّجم، الآية23.

- سورة القصص،الآية57.[15]

[16] - سورة الأعراف، الآية156.

[17] ـــ ينظر الزركشي(بدر الدّين)، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، الطّبعة الثّانيّة 1972، ج 1، ص102.8 .

فالمعجم في اللّغة :" العُجْم والعَجَم خلاف العُرْب والعَرَب. والأعجم الّذي لا يُفصح ولا يُبين كلامه، والعَجْم الإبهام والخفاء وعدم الإيضاح، قال الشّاعر:

مَنْتهلٌ للعباد لا بُدّ منه مُنتهى كلِّ أَعْجمٍ وفَصيحِ

وعجمتُ الكتاب: أبهمتُه، ومن ذلك: قولهم رجل أعجم، وامرأة عجماء، إذا كانا لا يفصحان، ولا يبينان كلامهما، وسميت البهيمة عجمة، لأنّها لا تتكلّم، وبلاد العَجَم سماها العَرَب بذلك ؛ لأنّ لغتها غير واضحة لهم ولا يفهمونها."[18]

والمعجم اصطلاحاً هو كتاب يضمّ كلّ كلمة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها، وشواهد تبيّن مواضع استعمالها في اللّغة. وقيل : "هو ديوان لمفردات اللّغة رتّبت على حروف المعجم أي : حروف الهجاء"[19].

ويجمع الدّارسون أنّ بداية المعجم العربي كانت بعد نزول القرآن الكريم. "فقد كان النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم يفسّر للصّحابة ما صعب عليهم من ألفاظ أو غمض من معان في القرآن، أو في الحديث، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[20]، وأشهر من تصدّى للتّفسير...بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ابن عبّاس(ت 68 هـــ).

وكان ابن عبّاس يعتمد في تفسيراته على إحاطته شبه الشّاملة بديوان العرب، وهو الشّعر، وكان يقول:" الشّعر ديوان العرب فإذا أخفي علينا الحرف من القرآن، وقد أنزله اللّه بلغة العرب،رجعنا إلى ديوانها،فالتمسنا معرفة ذلك فيه."[21]

وكان الدّافع الأساسي لعلماء اللّغة إلى وضع معاجمهم هذه حفظ القرآن من أيّ

---

[18]– ابن منظور، لسان العرب، مادّة عجم؛وسرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، تحقيق مصطفى السّقا وآخرون ج1، ص40.

[19] ـــ المعجم الوسيط، مادّة :عجم

[20] – سورة النّحل 44.

[21] ـــ السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن،ج 2، ص55.

خطإ في النّطق أو الفهم، وخاصّة إذا علمنا أنّ هناك ألفاظاً عدّها اللّغويون من الغريب والنّوادر في القرآن والحديث، ويسوق المؤرّخون في هذا الصّدد روايات تؤكّد ذلك فقد سئل أبو بكر عن قوله تعالى :﴿ **وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [22]فقال : أيّ سماء يظلّني وأيّ أرض تقلّني إن أنا قلت في كتاب اللّه ما لا أعلم؟.

وقد ظهر أوّل معجم شامل لألفاظ اللّغة على يد العالم الجليل الخليل ابن أحمد الفراهيدي، وتمثّل في كتاب (العين) المشهور. ثمّ شهد القرن الرّابع للهجرة غزارة في التّأليف المعجمي بضربيه: الألفاظ والمعاني (المعاجم الموضوعيّة).

والمعاجم الموضوعيّة هي الّتي رتّبت فصولها حسب المعاني والموضوعات، ومنها جواهر الألفاظ لقدامى ابن جعفر(ت337 هـــ)، والمخصّص لابن سيّدة، وفقه اللّغة للثّعالبي، ويدخل في هذا التّصنيف الرّسائل والكتب اللّغويّة الّتي اتّخذت المعاني وسيلتها في ذكر الكلمات.

أمّا معاجم الألفاظ فقد بنت قواعدها على علم الأصوات اللّغويّة، ورتّبت حسب الحروف الّتي تبتدئ بها أوائل الكلمات، أو أواخرها، مع اختلاف في ترتيب الحروف.

ومن معاجم الألفاظ (جمهرة اللّغة) لابن دريد(ت 321 هـــ)، (تهذيب اللّغة) لأبي منصور محمّد ابن أحمد الأزهري(ت270هـــ)، (والمجمل، ومقاييس اللّغة) لأحمد ابن فارس (ت395هـــ). ولقد احتوت المعجميات العربيّة حتّى القرن الرّابع على الذّخيرة العظيمة من الألفاظ ومعانيها، ذلك أنّ سلسلة المعاجم ابتدأت بأعمال الرّواة مع القرن الأوّل الهجري، الّذين رحلواْ إلى البادية ومواطن العرب الأقحاح، ممّن سلمت ألسنتهم من الخطإ ، أو الاختلاط بالأعاجم، والأقوام ذوي الألسنة المغايرة لعربيّة الشّمال كأهل اليمن، أو الأقباط، ودوّنواْ القدر الأكبر، ممّا كان لا يزال محكيّاً أو مرويّاً من أشعار وأخبار، و قليل

[22] ـــ سورة عبس، الآية 31.

من الخطب والكلمات المشهورة، وكذلك تلقّوْا أفواجاً من الأعراب الّذين عرفوْا ما لديهم من تراث حملوه."[23]

وينظر إلى المعجم على أنّه لا يفي بالغرض إذا ما رغبنا في حصر دقيق للدّلالة بحسب السّياقات وتنوّعها، ومع ذلك لا يعدّ هذا نقصاً في الدّرس المعجمي؛ لأنّ المنوط به هو إيراد المعنى المشترك ،

أو المركزي الّذي يتشعّب إلى مجموعة الحالات الجزئيّة الّتي تتباين وتتغاير بعدد السّياقات الّتي تحلّ فيها.[24]

ومن المعاجم الّتي يؤدّي دورها إلى إعطاء الدّلالة العامّة، ويوسّعها إلى نصّ جوانب من تاريخ الألفاظ، ودلالاتها في اللّغة العربيّة بحسب مفهوم الحركة التّطوّريّة وفوائدها، المعاجم الّتي لها صلة بمفهوم التّطوّر الدّلالي وقوانينه: كـَ (معجم لسان العرب) لابن منظور و(أساس البلاغة) للزّمخشري.

ويمكن استعراض بعض المواد في هذا الشّأن تشملها مقاربة بين ما ورد في (لسان العرب)، وما خاض فيه الزّ مخشري عن المجاز :

ـــ **(ط ب ع)** في اللّسان: الطّبع والطّبيعة: الخليقة والسّجيّة الّتي جبل عليها الإنسان، والطّبع: الختم وهو التّأثير في الطين ونحوه. يقال :(طبع اللّه على قلوب الكافرين)، أي ختم فلا يعي وغطّى ولا يوفّق لخير، وأمّا طَبَع القلب بتحريك الباء فهو تلطيخه بالأدناس. وأصل الطّبع الصّدأ يكثر على السّيف وغيره.

وفي أساس البلاغة: ومن المجاز: طبع اللّه على قلب الكافر، وإنّ فلاناً لطَمِع طَبِع:دَنِس الأخلاق، وربَّ طمع يهدي إلى طَبَع).

– قال المغيرة بن حَبْـــناء:

---

[23] ـــ ينظر أمجد الطّرابلسي، حركة الـــتّأليف عند العرب، دار الفتح، ط4، دمشق 1969، ص12.

[24] – فايز الدّاية،علم الدّلالة العربي(النّظريّة والتّطبيق)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ص217.

وَأُمُّكِ حِينَ تَنسبُ – أمُّ صدق ولكنَّ ابنَها طَبِعٌ سخيفُ

وهو مطبوع على الكرم، وقد طبع على الأخلاق المحمودة، وهو كريم الطبع والطبيعة والطباع والطبائع، وهو متطبّع بكذا، وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة"، ومن اللّسان أيضاَ: " الطّبْع بالسّكون: الختم، وبالتّحريك: الدّنس، وأصله من الوسخ والدّنس يغشيان السّيف، ثمّ استعير فيما شبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقابح .[25]

لـــدى المقاربة بين حقيقة هذه الكلمات ومجازيّتها نلاحظ تقارباً وتدرّجاً بين ماضيها وحاضرها.

2 – : الاشتقاق :

ومن تجلّيات التّطوّر الدّلالي الّذي اضطلع به المعجم العربي، الاشتقاق ودوره المساعد على فهم إمكانيات التّطوّر الدّلالي التّاريخي في العربيّة، وذلك في ضوء السّياقات المختلفة، وفي هذا يقول فايز الدّاية :" ...الاشتقاق من أقدم الدّراسات الّتي عني بها اللّغويون العرب، وهو إحدى طّرائق التّوسّع اللّغوي الدّلالي الّتي اعتمدها العرب لإثراء لغتهم وإغنائها لتتمكّن من التّعبير عمّا يستجدّ من مفاهيم جديدة، ومسمّيات مستحدثة، وبالتّالي مواكبة التّطوّر المتنامي للّغة باستمرار.

والاشتقاق في معرفة علماء اللّغة هو نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباَ وتغايرهما في الصّيغة .

والاشتقاق أيضاَ أخذ صيغة من أخرى مع اتّفاقهما معنى ومادّة أصليّة، وهيئة تركيب لها، ليدلّ بالثّانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفاً وهيئةً كضارب من ضرب.[26]

ومصطلح الاشتقاق ينصرف إلى ضربين تحدّث عنها القدماء من علماء

---

[25] ـــ ينظر فايز الدّاية،علم الدّلالة العربي –النّظريّة والتّطبيق– ص 227.

[26] ـــ د/ أحمد عبد الرّحمن حمّاد، عوامل التّطوّر اللّغوي، دار الأندلس، ط1 : 1403 هـــ/1983م، ص17.

اللّغة:

أوّلهما: الصّغير، وهو الأكثر تداولاً في الكتب والمصنّفات الصّرفيّة، وفيه: المصدر ومجموعة من المشتقّات تشعّبت عنه بزيادة حرف من حروف (سألتمونيها)، قال ابن جنّي :"فالصّغير ما في أيدي النّاس وكتبهم،كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقرّاه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب (سلم) فإنّك تأخذ من معنى السّلامة في تصرّفه، نحو:سلم ويسلم وسالم، وسلمان وسلمى والسّلامة والسّليم: اللّديغ، يطلق عليه تفاؤلاَ بالسّلامة.

وعلى ذلك بقيّة الباب إذا تأوّلته، وبقيّة الأصول غيره،كتركيب(ضرب) و(جلس)...على ما في أيدي النّاس، فهذا هو الاشتقاق الأصغر.[27]

ثانيهما: الاشتقاق الكبير (أو الأكبر): ويقوم هذا الضّرب من الاشتقاق على أنّ معنى عاماً مشتركاً يربط بين زمرة من الصّيغ هي نتاج تقاليب الأصل، وابن جنّي هو الّذي أورده في الخصائص، وإن كانت الفكرة مطروقة قبله بقرنين من الزّمن، ولكن في مجال آخر عند الخليل في كتاب (العين) يقول ابن جنّي: " وأمّا الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثّلاثة فتعقد عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه ردّ بلطف الصّنعة والتّأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التّركيب الواحد، نحو :(ك ل م) (ك م ل) (م ل ك) (م ك ل) (ل ك م) (ل م ك). وكذلك (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) (و ل ق) (ل ق و) (ل و ق)، وهذا أعوص مذهباً وأحزن مضطرباً، وذلك أنّا عقدنا تقاليب الكلام السّتّة على القوّة والشّدة، وتقاليب القول السّتّة على الإسراع والخفّة."[28]

إنّ للاشتقاق قدرة على توليد الصّيغ المختلفة والدّلالات المتعدّدة،دون أن تحجب الواحدة منها الأخريات عن الأصل الأوّل. وذلك أنّ من خصائص اللّغة العربيّة ثبات

---

[27] ــ ابن جنّي(أبو الفتح عثمان)، الخصائص، دار الكتاب العربي، ج2، ص134.

[28] ــ ابن جنّي (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، ص134-135.

الحروف الأصليّة الثّلاثة من كلّ مادّة مهما يطرأ على الكلمة من تبدّل في اشتقاقها ،وصيغها كحروف (ع ل م)، فإنّ جميع الألفاظ الّتي اشتقّت، أو الّتي يمكن أن تشتقّ من هذه المادّة: كالعلم والعلوم والعلماء والاستعلام والمعلولات والمعالم والتّعلّم والإعلام وغيرها من الألفاظ المشتقّة من هذا الأصل، تشتمل على جميع الحروف الثّلاثة، ومقابل ثبات الحروف الثّلاثة، ثبات المعنى الأصلي، والمفهوم المشترك بين الألفاظ. وخاصّة ثبات الأصول في صورتها اللّفظيّة ودلالتها المعنويّة، وهذه الخاصّية هي الّتي يتطلّبها الإسلام لإمكان تثبيت المفاهيم الّتي يريد تثبيتها في مبادئه وأحكامه، مع بقائها واستمرارها في اللّغة الشّائعة المستعملة عند إنشائها، دون أن تحدث فجوة واسعة بين الأصل اللّغوي المستعمل، وما انتهى إليه في صورته ومعناه.

وهكذا تبقى اللّغة العربيّة على صلة وثيقة وفهم صحيح للنّصّ القديم مهما طال العهد به. وأمّا اللّغات الأخرى، فإنّ الألفاظ فيها يعتريها التّبدّل والتـــحوّل في صورتها حتّى حروفها وأصواتها، فلا تكاد تعرف أصولها، وفي دلالتها المعنويّة كذلك، وبهذه الصّورة يصبح بين ألفاظ النّصّ القديم، وما انتهت إليه هذه الألفاظ في تطوّرها كسر يؤدّي إلى جهل المعنى القديم، أو إلى الوقوع في خطإ جسيم بحمل اللّفظ القديم على اللّفظ الحديث.[29]

وهذه الفكرة الّتي أثارها الأستاذ محمّد مبارك تشير إلى أنّ اللّغة العربيّة تملك القدرة على المحافظة والثّبات على قديم المفاهيم والدّلالات، كما أنّها تحمل راية التّطوّر والتّجديد والإعراب في ذلك، فهي لغة القرآن، المعجزة الكبرى في كلّ زمان ومكان.

وفي علم الدّلالة تحليلات لضروب الاشتقاقات الّتي تظهر خلال عمليات التّطوّر الدّلالي، ممّا يبرز أهمّية الاشتقاق في تكوين مفردات جديدة في العربية، وهي تكتسب

[29] - ينظر الأستاذ محمّد امبارك، التكامل الحضاري في تكوين اللّغة وتطوّرها، مجلّة اللّسان العربي، المجلّد السّابع، ص 49.

خصائص معيّنة في غالب الأحيان (كأن يتّسع مجاله أو يتحوّل إلى المجرّد الذّهني).

ومن النّماذج والشّواهد على حالات التّطوّر الدّلالي في باب الاشتقاق:

ـــ الانتقال من الأسماء إلى الأفعال من المادّة اللّغويّة ذاتها مع التّطوّر في الدّلالة،منها ما جاء لدى ابن النّحاس حول بيت طرفة :

وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِدَاءَهَا تُمْلِيهِ نَقِيَّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّد

فقوله: لم يتخدّد: أي لم يضطرب، مشتق من الخدّ، لأنّه إنّما مثل له الخدّ لأنّه يضطرب عند الأكل.

ويورد ابن الأنباري واحداً من الأخيلة .وهو يشرح عن امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

فقلت له لّما تمطّى بصلبه، أي لّما تمدّد بوسطه، ويقال تمطى الرّجل، إذا تمدّد، أي مدّ مطاه أي ظهره، ويقال مطوت أمطو إذا مددت في السّير.[30]

في هاتين الحالتين: الاسم يتحوّل بالاشتقاق إلى الحالة الفعليّة وخلال ذلك تتنامى الدّلالة في اللّغة العربيّة .

ـــ ومن أمثلة انتقال الدّلالة من فعل إلى فعل مع تطوّرها ما جاء لدى ابن النّحاس وهو يشرح حديثاً عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم: (إنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم عنّي مجالس يوم القيامة الثّرثارون المتفهقون)، ويعلّق قائلا: ويقال فهق النّهر إذا امتلأ حتّى يفيض، ويستنتج أنّ الحركة اتّخذت مساراً من الفعل المادّي المتّصل بالنّهر وفيضانه، إلى الفعل الكلامي المشابه في تدفّعها لتستزيد فيه لما عليه مياه الأنهار في حالات خاصّة، وبعدها استحقّ الاسم المحدّد (المتفيهق) واستعمل.[31]

إنّ النّشاط الاشتقاقي يميل اتّجاهاً نازلاً نحو مركز المصادر الأصليّة، واتّجاهاً آخر

---

[30] ـــ ينظر فايز الدّاية، علم الدّلالة العربي، ص324.

[31] – نفسه، ص 326.

صاعداً إلى أطراف الدّائرة المحدّدة بالأوزان والصّيغ المقبولة بعد استقرار للأسلوب العربي الصّحيح في الشّعر أثناء عمليّات الجمع والتّدوين والتّقعيد، واعتقادي هذا النّمط من التّصنيف يتحوّل إلى مفتاح لحلّ مشكلة التّطوّر الدّلالي، واستجابة لمتطلّبات الحياة الّتي تستدعي ألفاظاً ومسميات جديدة، فلابدّ من عمليّة التّكييف بحسب النّظام الاشتقاقي .

الهوامـــــش:

- القرآن الكريم (المصحف الشّريف)

1 – ابن جنّي(أبو الفتح عثمان)، الخصائص، دار الكتاب العربي، ج2.

2 – ابن منظور، لسان العرب، مادّة عجم؛وسرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، تحقيق مصطفى السّقا وآخرون ج1 .

3 – أحمد بن مصطفى الشّهير بطّاش كبرى زادة (تحقيق كامل بكري وآخرون)، مفتاح السّعادة، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ج 2

4 – د/ أحمد عبد الرّحمن حمّاد، عوامل التّطوّر اللّغوي، دار الأندلس، ط1 : 1403 هـــ/1983م.

5 – د/ أحمد محمّد قدّور، اللّسانيات وآفاق الدّرس اللّغوي، دار الفكر المعاصر، بيروت،لبنان.

6 – د/ أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، ط5: 1998م.

7 – أمجد الطّرابلسي، حركة الــتّأليف عند العرب، دار الفتح، ط4، دمشق 1969م.

8 – الزركشي(بدر الدّين)، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، الطّبعة الثّانيّة 1972م، ج 1.

9 – السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار نهر النّيل، ج1.

10 – د/ عبد العال سالم مكرم،اللّغة العربيّة في رحاب القرآن الكريم، عالم الكتب.

11 – فايز الدّاية، علم الدّلالة العربي(النّظريّة والتّطبيق)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر.

12 – محمّد حسين آل ياسين، الدّراسات اللّغويّة عند العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت– لبنان، ط1.